العرب الثقافي
الأحد 2019/09/29
السنة 42 العدد 11482

جاهزية المعرفة

فاطمة الشيدي
شاعرة من عمان

في البدء علينا أن ننتبه إلى أن التفكير النقدي الحقيقي والأصيل، والذي يطرق مناطق حساسة في الوعي الإنساني، أو يتناول النص بأدوات جادة ومتجددة نحتا وتحليلا هو عملية شاقة، وخاصة ونادرة، وليست سهلة متدفقة كالفعل الإبداعي، ثم إن هذا الاشتغال المعرفي قليل جدا في عالمنا العربي بشكل عام، بل وربما هو نادر أيضا. وما هو موجود على الساحة النقدية العربية اليوم هو مجرد محاولات لدغدغة مفاصل النص، أو الوقوف على ضفاف المعنى، أو محاكاة لنظريات غربية قائمة أصبحت اليوم قديمة نسبيا، والقليل منها -أي تلك المحاولات- يصل مع الزمن والاجتهاد إلى مرحلة من النضج.

إذا كان هذا هو الحال لدى الجميع فليس غريبا ندرة وجود المرأة الناقدة، فالمرأة في عالمنا العربي أسيرة اللاوعي الجمعي بخصوصية الأدوار بين الذكور والإناث، وانحياز المرأة للشعر والسرد وقد أنتجت في ذلك نتاجات غزيرة لا ينكرها إلا حاقد أو جاهل، في حين اختص الرجل بالتفكير النقدي -طبعا مع الفعل الإبداعي شعرا سردا- واجتهد فيه ما وسعه الاجتهاد، وبرزت فيه بعض الأسماء القليلة بنتاجات مميزة.

إلا أن أمرا كهذا لا يمكن التعامل معه بشكل مطلق؛ فالاشتغال بمسائل الفكر والإبداع يعتمد في غالبيته على توافر الظروف الحاضنة للعملية الإبداعية كالمؤسسات البحثية والأكاديمية. ولذا تجد أغلب المشتغلين بالنقد والفكر هم من الأكاديميين والباحثين والمشتغلين بحقول المعرفة والإبداع. إلا أن هذا أيضا ليس معيارا نهائيا للظهور والبروز الفكري، لأن معظم هذه الاشتغالات تكون غالبا عادية وتنتج نتاجات سائدة، أما المائز والمختلف فيكون نتيجة المواهب الإبداعية بطفراتها التاريخية، فهذه هي التي تنتج التميز الثقافي وترسّخ بعض الأسماء في الذاكرة الإنسانية الخالدة، وهي -أي الطفرات الإبداعية- ليست مستمرة أو وفيرة من جهة، وليست حكرا على الذكور دون الإناث من جهة أخرى. ولكن تلك الطفرات -التي تكون ضمنها المرأة بطبيعة الحال- تحتاج أيضا للظروف المهيئة للفعل النقدي لأنه فعل يحتاج إعدادا طويلا وتراكما معرفيا غزيرا وتكريسا مستمرا للذات في خدمة الموضوع/المعرفة، وبالتالي يحتاج تفرغا تاما أو شبه تام للإلمام المعرفي والاستمرار فيه، وهذا ما يشكّل صعوبة على المرأة العربية المحاصرة بدوائر وأدوار لا تعد ولا تحصى ينبثق بعضها من بعض، وليس لديها الحرية الكاملة لاختيار طريقها الخاص وطريقتها الوجودية في الحياة.

> المرأة في عالمنا العربي أسيرة اللاوعي الجمعي بخصوصية الأدوار بين الذكور والإناث، وانحياز المرأة للشعر والسرد وقد أنتجت في ذلك نتاجات غزيرة لا ينكرها إلا حاقد أو جاهل

فالمرأة التي مورس على وعيها الفرداني كل ضروب العنصرية والتمييز التاريخي أصبحت -إلا من رحم ربي- مقتنعة في اللاوعي بعدم قدرتها أو عدم صلاحيتها لبعض الأدوار، وحتى لو حدث أن خرجت إحداهن على ذاتها الأنثوية بصناعتها المجتمعية فسيتلقفها عدم الإيمان بما تفعل، من قبل الجمع الذكوري، وستهمّش نتاجاتها الفكرية فقط لأنها أنثى. إن جبروت الوعي واللاوعي المجتمعي العربي الذكوري المنشأ والأصول لا يقبل بظهور مفكّرة تخالف سنة التكوين الجمعي والكينونة الفطرية وهي تفوق الذكور، فكيف يسمح لها بمشاركة صناع الفكر وفحولته منهم، ناهيك عن التفوق عليهم. ثم إن حدث ورفعت المرأة سيفها، وقررت دخول المعترك (الحرب الدونكيشوتية)، فكم تراها ستصمد أمام كل تلك الطواحين، وما هي النتاجات الفكرية التي سيمكنها أن تنتجها وهي مشغولة بخوض المعارك، وتبرير وجودها الفكري والإنساني، ومواجهة كل أولئك المعترضين، وتفنيد آرائهم ومناقشتهم، وغير ذلك مما يستنفد الوقت والجهد.

ومن المؤسف والصادم حقا أنه حتى اليوم لا يوجد تأسيس راسخ تبني عليه المرأة العربية المفكرة والناقدة الجديدة مشروعها الفكري، ولذا عليها أن تبدأ دائما من الصفر لتشكّل حلقة من البدايات المستمرة وغير المتصلة، وبالتالي فالتراكم المعرفي التأسيسي للمرأة العربية المفكّرة والناقدة هو تراكم هش وضئيل، ولا يعوّل عليه في إكمال البناء وصناعة الصورة المكتملة.

إن مشروع المرأة العربية الفكري ما أن يظهر حتى تُوَجه إليه السنان والرماح من كل سلطة في عالمنا الآسن بدءا من سلطة الدين الذي ما فتئ يحيّد دورها الفكري، ويحصرها بين علامتي تنصيص فطرية أنثوية حيوانية جدا، ومرورا بالسلطة السياسية والاجتماعية الذكوريتين اللتين استفادتا من نظرة السلطة الأولى للمرأة، ودورها في ترسيخ ذكوريتها عبر تكريس دور المرأة كما قررته سلطة الدين الذكورية.

بل إن الأمر وللأسف في تراجع وانهيار مستمرين فما بنته المرأة عبر حقب وحروب ومعارك ضارية وما حصدته من إنجازات ونجاحات واستحقاقات إنسانية وفكرية كالمساواة والحرية في بعض البلدان نجده اليوم في تراجع مستمر وتراخ يشمل كل شيء، كما نجد تراجع الحراك المدني والسلطة الثقافية ورموزهما من الناشطين والحقوقيين والكتاب والمثقفين عن دعم المرأة والدفع بها للأمام، وتأييدها في مشاريعها الفكرية والتنويرية كما كان يحدث قبل زمن قريب. والأدهى والأكثر وجعا أن بعض الرموز الثقافية والفكرية تقف منها موقف الخصم، تحركهم التربية الذكورية الاجتماعية في نظرتهم القاصرة للمرأة تحجيما وتقليلا. وبعد كل هذا فلا عجب أن تراجع مشروعها الفكري والإبداعي خاصة ضمن ما خلّفته الثورات العربية من تراجع صورة المرأة العربية إنسانيا وحقوقيا، ولا عجب أن تقل نتاجاتها الفكرية (القليلة أصلا أو المحكومة بمشاريع محددة جدا) مع الوقت والزمن الذي كان يفترض أن تزداد فيه وتتعمق.

إن تفكيك مشكلة المرأة العربية الناقدة والمفكرة ليس بالأمر الهين، فلا يمكننا أن نلقي التهم جزافا.

لوحة الفنانة مايسة محمد

المرأة المخدوعة

أسماء هاشم
كاتبة مصرية

يكفي أن تكتب المرأة العربية مفكرة على أحد محركات البحث لتظفربتكراراسم المصرية نوال السعداوي 1931 والمغربية فاطمة المرنيسي (1940 – 2015) وتاريخ نضال كل منهما في مجال الفكرالاجتماعي والنسوي والجهد الفكري لكليهما والمنجزالكتابي الذي لخصت فيه كل منهما جل أفكارها، وعدد كبيرمن الكتابات عن هذا المنجز.

بتكرارالبحث وتخصيصه لن نجد إلا تكرارنفس النتائج ليصبح السؤال بديهيا لماذا تغيب المرأة المفكرة من الثقافة العربية؟ يحيلنا السؤال لواقع سياسي واجتماعي وثقافي تداخلت كل عناصره وبقصد أو بدون لنصل لنتيجة واحدة؛ نتيجة واحدة تعكس صورة المرأة العربية المخدوعة المُستَغَلة. مخدوعة من قبل القوانين التي طالها الاصلاح في أزمنة ازدهار دعاوي التحرر لتنال المرأة بموجب هذه الاصلاحات حقها في التعليم والعمل والمشاركة السياسية مخدوعة في مجتمع لم يمنحها الحق في العمل لنضالها لتنال حقها في الاستقلال عن الأبوي والذكوري بل تحول العمل لعبء جديد وحدد معايير تميزها وتفوقها بقدرتها على الجمع بين العمل والبيت والنجاح في كليهما دون أن يقدم لها المساعدة في الوقت الذي يحصد فيه وحده الثمار المادية لهذا العمل لتتحول من كائن مستقل إلى كائن مستغل على غرار ما فعلت الرأسمالية الغربية التي جرت النساء من البيت الى العمل ليس بغرض تحريرهن ولكن للاستفادة منهن في قوة العمل، مخدوعة من قبل المؤسسات النسوية التي تراجع خطابها التحرري الذي كان قد وصل إلى أفق مُرضي في فترات سابقة ليتراجع لأسباب كثيرة لحدود ضيقة لا تبرح حماية المرأة الإيذاء البدني والحفاظ على أعضائها الجنسية.

تتشابه – تقريبا – الظروف التاريخية والثقافية الاجتماعية والسياسية التي نشأت فيها كل من السعداوي والمرنيسي، وازدهر فيها المشروع الفكري لكليهما، النصف الأول من القرن العشرين، زخم النضال العام من أجل التحرر من الاستعمار ونمو الوعي العام لدى تلك الشعوب بأهمية التحرر، قضية المرأة وتحررها باعتبارها أحد نواتج تحرّر المجتمع. النصف الأول حتى بدايات النصف الثاني من القرن العشرين وازدهار الفكرالتحرري الذي طال وضعية المرأة وعمل على تغيرها على مستوى القوانين. ازدهر مشروع السعداوي والمرنيسي نهاية سبعينيات القرن العشرين حتى عادت الأصولية الإسلامية بقوة في المشهد الثقافي وفرضت وجودها وحاربت النسوية على نحو ما فعلت مع السعداوي في مصر من مصادرة كتابها وتشويه صورتها بل وشيطنتها واعتبار النسوية هي نضال المرأة للتخلي عن الأدوار البيولوجية والاجتماعية لها ولقيت دعوة الأصولية رواجاً في الأوساط الشعبية التي تُعاني من الأمية بنسبة كبيرة كما أن هذا الوسط هو نتاج ثقافة ذكورية أبوية أدى إلى تردي أوضاع المرأة.

لوحة الفنانة سارة شمه

صورة تونسية

ليلى العبيدي
كاتبة تونسية

حين نتحدث عن المرأة، والمرأة التونسية المناضلة بصفة خاصة، فنحن لا نخص بحديثنا النساء اللاتي شاركن في تحرير البلد من المستعمر ولا اللواتي ساهمن في الثورة التونسية إنما نحن نتحدث عن المرأة التونسية البسيطة، ونخص بالذكر الأم العاملة. إذا ما تتبعت أطوار حياتها اليومية فلن يعز عليك نعتها بلفظ المناضلة، فهي التي تتحمل أعباء الواجبات المنزلية ومتطلبات الأبناء والزوج علاوة على مشقة الحياة المهنية. ولعل ما يزيد من ثقل حملها هو تلك الضغوطات التي لا ينفك المجتمع يمارسها ضدها. فإذا ما اشتكت من أعباء العمل تواجهها الحناجر مستنكرة مذكرة إياها بمطالبتها بحق العمل مساواة مع الرجل. في حين أنها كلما أعلنت شقاءها في مطلب الإلمام بكل الواجبات الأسرية لا يرحمها لسان اللوم والانتقاد باعتبار أن شؤون المنزل والأبناء مرآة تعكس نجاحها الأسري. الأمر يتجاوز مجرد الحرص على إيجابية موقف المجتمع من المرأة ويتجاوز حياة المرأة إلى حياة الأبناء ومستقبل الأجيال الصاعدة. كيف لأسرة الأم فيها تعمل لمدّة ثماني ساعات يوميًا والأب كذلك أن تنشئ أبناء مشبّعين بالقيم الحميدة والتربية الصالحة وهم لا يجتمعون بآبائهم وأمهاتهم إلا في آخر يوم متخم بالعمل والجهاد أو في أيام العطل الأسبوعية حيث تتراكم الواجبات المنزلية المؤجلة. أين يقضي هذا الطفل يومه خارج أوقات الدراسة؟ فهو إن نجا من تشرد الشوارع ومخاطره سيجد نفسه في سن الطفولة الأولى مع أمّ مستأجرة ومع كمّ هائل من الإخوان في اليتم. لكأن التاريخ يعيد نفسه لكن بصورة أتعس فإن كانت المرأة التقليدية قديما متفرغة لتربية الأبناء الذين قد يبلغ عددهم العشرة أو يزيد، فها هو طفل القرن الحادي والعشرين يحرم من الأم البيولوجية ليحشر لا محالة مع حشد من الإخوان الذين لفظهم تيار الحداثة على أرصفة الانتظار. انتظار إعادة لملمة شمل العائلة أو ما تبقّى منها في آخر النهار. فما فائدة برامج التنظيم العائلي وأيّ قيمة لهذه الحداثة البلهاء التي تيتم أبناءنا كل ساعة وكل يوم لأنّها مبنيّة على مشروع الفرد لا الأسرة. لا غرابة إذن أنّ ذلك الطفل إذا ما بلغ سنّ المراهقة لن يكون غير بوابة مشرعة على مخاطر الانحراف والإجرام.

لقائل أن يرد كل ذلك لعامل الضغوطات المادية التي تعاني منها الأسرة التونسية عامة أو أن يحتج على خروج المرأة إلى العمل ويطالبها بالعودة إلى دورها التقليدي في رعاية الأبناء لكن الأمر في رأيي ليس بهذه البساطة والسطحية لأنه لا يمكن إنكار حق المرأة في التعلّم والعمل كما لا يمكن إنكار ما تتطلبه الحياة اليومية من حاجات مادية تجبر الآباء والأمهات على الانخراط في صفوف المناضلين المنسيين.

لوحة الفنان جبران هداية

غياب حرية التفكير

ابتسام القشوري
ناقدة تونسية

أعتقد أنّ ندرة حضور المرأة في حقل التفكير النقدي مرتبط آليا بحضورها المتأخر في الإبداع بصفة عامة وذلك نتيجة مفهوم الأسرة التقليدي المرتبط بتقاليد المجتمع الذكوري و الذي يرى في المرأة إما وزوجة وأختا وابنة فقط ويرمي على كاهلها مسؤولية الزواج والإنجاب وتربية الأبناء. ورغم دخول المرأة في معترك الحياة في الدراسة والعمل بقيت ترزح تحت مسؤولية التوفيق بين عملها وبيتها وهذا ما يعيقها عن فعل الإبداع بصفة عامة.

كما أن الإبداع ومنه التفكير النقدي هو الخلق والتجديد والرغبة في التغيير والإتيان بما هو غير مألوف وبكلمة واحدة هو التمرد والجرأة، والمرأة في مجتمعاتنا بفعل الوصاية الذكورية عليها لا يسمح لها بالتمرد لا على المستوى الاجتماعي ولا على المستوى الأدبي والفني.

غير أننا نستطيع أن نسجل حالات نادرة في المشهد الثقافي العربي لنساء استطعن أن يجتزن حاجز الخوف والمجتمع وكونوا مشروع فكرى نقدي جريء يقوم أساسا على نقد التراث ونقد المؤسسة الذكورية والدعوة إلى تحرير المرأة وحثها على المطالبة بحقها في تواجدها في كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية نذكر من بينهم نوال السعداوي في مصر وفاطمة المرنيسي في المغرب،

إنها دوائر مرتبطة بعضها ببعض فالمشروع الفكري يتطلب الكثير من الجهد والمثابرة والتراكم المعرفي والاعتماد على التفكير الفلسفي والعلمي وهذا يتطلب تفرغا تاما لكن بالنسبة إليّ أرى أن ذلك غير مرتبط بانشغال المرأة بمسؤوليات الأسرة والتربية ولكن هو مرتبط بحالة المشهد الثقافي العربي، فنحن ليس لدينا مشاريع فكرية مهمة نتيجة غياب التفكير الفلسفي منذ القرن السابع وحرق كتب ابن رشد، والعرب لا تمتلك مشاريع فكرية تقدم إضافة كبيرة للمشهد الفكري العربي باستثناء محمد عابد الجابري ومحمد أركون والبقية تبقى إما استنساخا للتراث أو الاتجاه نحو الثقافة الغربية.

وهو كذلك نتيجة غياب حرية التعبير وعدم التشجيع على التفكير النقدي في البرامج التربوية وهذا ما جعلنا في أسفل القائمة من حيث التفكير النقدي والمشاريع الفكرية فغياب المرأة هو تراكم لكل هذه الأسباب التي ذكرناها.

أما عن حجم الإنتاج الفكري والنقدي للمرأة العربية اليوم فأعتقد أنّه ضئيل جدا وغير كاف خاصة إذا تكلمنا على النقد الجاد الذي يلزمه الكثير من التمكن وليس تلك المقالات التي نقرأها يوميا على أعمدة الجرائد.